السياسية الاستعمارية الفرنسية في موريتانيا على عهد فيدهرب Faidherbe[1].

د. محمد عبد الرحمن ولد عمار*

المقدمة: بعد اعتلاء نابليون الثالث عرش فرنسا أعلنت حكومته أنها تنوى استمرار سياستها الإيجابية لتطوير التجارة مع السنغال ومد نفوذها من السنغال إلى الداخل[2]، فتجسدت تلك الرغبة فى خطة استعمارية جديدة، أرسل بها الإمبراطور نابليون الثالث إلى الحاكم الفرنسي في السنغال[3]، ملخلصا إياها في:

1- وضع حد لمطالب واعتداءات القبائل الموريتانية الموجودة بجوار نهر السنغال.

2- تأكيد السيادة الفرنسية على نهر السنغال.

3- حماية المزارعين المستقرين ضد غارات السلب التى تقوم بها القبائل الموريتانية.

وقد جاءت هذه التعليمات على هوى من رغبات الحاكم الفرنسي في السنغال الذي وضعها موضع التنفيذ، فأوكل في إبريل 1854م إلى مساعده فيدرب Faidherbe مهمة إنشاء موقع في بُودُورْ Podor لحراسة النهر باعتبار ذلك خطوة أولى في تنفيذ تلك التعليمات، غير أن بروتيه لم يحظ بتنفيذ تلك التعليمات، حيث سلم السلطة كاملة لمساعده فيدرب لتبدأ مرحلة جديدة من العلاقات الفرنسية الموريتانية.

فيدرب وسياسة التوسع الاستعماري الفرنسي: لقد جاء تعيين فيدرب سنة 1854م حاكما للسنغال، مواكبا للخطة الاستعمارية الجديدة، لذلك أوكلت إليه مهمة توسيع النفوذ الفرنسي من نهر السنغال إلى الداخل، وتجدر الإشارة هنا إلى أنه وحتى تسلم فيدرب مقاليد الأمور فى السنغال، كان لفرنسا ثلاث مناطق متفرقة، اثنتان على الساحل، الأولى عند سان لوي وتمتد حتى بُودُورْ على نهر السنغال والثانية على الرأس الأخضر Vert Cap ودكار وتمتد حتى نهر جامبيا، أما الثالثة، فكانت فى الداخل وتشمل منطقة التقاء نهر فاليم بنهر السنغال وتمتد من بكَّلْ حتى خاي Kayes[4].

*أستاذ التعليم العالي في التاريخ المعاصر- كلية الآداب والعلوم الإنسانية- جامعة انواكشوط- موريتانيا.

كما أن هذا التعيين جاء بعد موجة من الاضطرابات عرفتها المنطقة، فى الوقت الذى التزمت فيه فرنسا خلال الفترة السابقة على تعيين فيدرب بأن تنهج سياسة التهدئة والسلام دون التورط فى القيام بعمليات غزو للمنطقة[5]. لكن هذه السياسة تغيرت بمجيء فيدرب الذى طمح فى تدعيم النفوذ الفرنسي فى المناطق المذكورة، وجعلها لواء متكاملا تحت العلم الفرنسي، غير أن هذا يتطلب منه القيام بسلسلة من العمليات الحربية[6]. وقد وضع فيدرب الخطوط العريضة لسياسته التعاملية مع مختلف القوى المحلية، تمثلت أساسا فى سياسة الترغيب والترهيب "السلم أم الحرب"، وعلى تلك القوى التعامل معه أو الاستسلام للنفوذ الفرنسي، معتقدا أن هذه السياسة هي الطريقة الوحيدة التى تحقق آماله فى تكوين إمبراطورية فرنسية تمتد من السنغال إلى المناطق الداخلية من القارة[7].

وتنفيذا لسياسته الاستعمارية استطاع فيدرب أن يجمع المناطق المذكورة، حيث اتصلت ببعضها البعض واتسعت فى أكثر الجهات، وكوّن منها مستعمرة متماسكة جغرافيا وإداريا[8]، الشيء الذى كان لا بد وأن ينعكس على العلاقات الفرنسية الموريتانية؛ فتعيين فيدرب جاء مواكبا لنزعة فرنسا التوسعية، والمتمثلة فى نهج الإمبراطورية الثانية سياسة أكثر نشاطا فى أفريقيا؛ فقد تميزت سياسة نابليون الثالث بأنها سياسة توسعية عسكرية سعى فيها إلى الربط بين ممتلكات فرنسا فى الشمال الإفريقي (الجزائر) بتلك التى فى غرب القارة بما فى ذلك السنغال، وكان فيدرب يمثل النموذج الاستعماري، خاصة وأن تعيينه كان بطلب من المستوطنين الفرنسيين فى السنغال[9]، الذين كانوا يرون فيه الرجل المناسب الذى سيحقق لهم أهدافهم التجارية؛ ذلك أن فيدرب كان يرغب فى أن تكون توسعاته اقتصادية، وتشمل منطقة واسعة لكي يكفل بذلك الرخاء للتجار الفرنسيين الموجودين فى حصن سان لوي[10].

وتنفيذا لتلك الرغبة سواء كانت الفرنسية بصفة عامة، أو رغبة فيدرب والتجار الفرنسيين فى السنغال بصفة خاصة، فإن فيدرب وخلال فترة حكمه فى السنغال[11] اهتم بتوطيد السيطرة الفرنسية و نفوذها وتعزيزها فى المنطقة، فقد اهتم فى مرحلة حكمه الثانية من 1863م- 1865م بغزو أعالى نهر السنغال، والصراع مع زعماء الزنوج، بينما ركز جهوده فى المرحلة الأولى من حكمه 1854م- 1861م على مستعمرة السنغال وموريتانيا، وذلك لأن أهم عمل عند فيدرب هو تأمين حدود المستعمرة ضد هجمات القبائل الموريتانية التى كانت تهدد

المستعمرة من الشمال، ومن أجل تحقيق هذا الهدف لخص فيدرب سياسته فيما يتعلق بموريتانيا في:

1- الضغط على القبائل الموريتانية، وإعادة صياغة العلاقات الفرنسية معها(سياسة الاتفاقيات).

2- كشف موريتانيا، وجمع المعلومات عنها[12].

لقد لخص فيدرب برنامجه التوسعي اتجاه موريتانيا بقوله: "لا بد من أن نملي إرادتنا على رؤساء المور- يعني البيضان- من أجل تجارة الصمغ، كما يجب إلغاء موانئ التبادل التجاري... باستخدام القوة إذا فشلت وسائل الإقناع، وينبغي إلغاء كل الإتاوات...، وعلينا أن نكون أسياد النهر، كما يجب تحريم والو بانتزاعها من الترارزة، وحماية المزارعين على الضفة اليسرى ضد المور (البيضان)".[13]

1- سياسة الاتفاقيات: ولما كانت سياسة فيدرب تقوم على أساس السلام أو الحرب، فإنه لا غرو إذا ترتب على ذلك دخوله فى منازعات مع القوى المحلية المختلفة، وعليه فإنه قد رأى أن يبدأ بالاستيلاء على كايور **Gayor** لتدعيم مركز الفرنسيين فى السنغال الأدنى، غير أنه رأى من ناحية أخرى أن الخطر الأكبر الذى يهدد السنغال هو الغارات المتكررة التى تقوم بها القبائل الموريتانية على الضفة الشمالية للنهر، هذا إضافة إلى حق أمير الترارزة فى جباية الضرائب على عمليات التبادل التجاري التى تقوم بين أتباعه وسكان سان لوي[14]. ذلك الحق الذى خولته إياه بعض الاتفاقيات التى عقدت بين فرنسا والأمراء الموريتانيين[15].

وعلى الرغم مما تمخض عن اتفاقية **1835**م، التى تنازل فيها الأمير محمد الحبيب عن منطقة والو، واعتراف الأميرة جمبت بالحماية الفرنسية عليها، فإن ذلك لم يثبط أو يقيد طموحات محمد الحبيب عن السيطرة على والو، التى كان يعتبر نفسه سيدا عليها بزواجه من الأميرة جمبت، وتجسيدا لتلك الرغبة تم التحالف بين الترارزة والبراكنه الذين شنوا هجوما على سان لوي سنة **1855**م، غير أن ذلك الهجوم لم يؤد إلى نتائج ملموسة، وإنما أفضى إلى توقيع اتفاقية مع كل من أمراء الترارزة والبراكنة وإدوعيش، حددت فيها المراكز التجارية التى يجب أن يتم فيها التبادل التجاري بين كل من القبائل الموريتانية وفرنسا؛ فكان ميناء كل من بكّلْ ومتام **Matam** مكان التبادل بين إدوعيش وفرنسا، فى حين يكون التبادل مع البراكنة فى ميناء بُودُورْ، بينما يتم التبادل بين الترارزة والفرنسيين فى كل من دگانه وسان لوي. وفى مقابل ذلك تعهد الحاكم الفرنسي من جهته بأن يحذر التجار الفرنسيين من المتاجرة خارج الموانئ

المذكورة، على أن يتقاضى الأمراء الموريتانيون نسبة مئوية من محصول بيع الصمغ الذى يتم تبادله على الضفة اليمنى لنهر السنغال.

ومع ذلك، فإن فيدرب مازال يدرك خطر التحالف التروزي– البركني ضد فرنسا، والذى دعموه بسيطرتهم على منطقة والو، فأصبح يواجه خطر كل من الحاج عمر زعيم التكرور، إلى جانب تهديد مابًا Maba[16] للفرنسيين على الساحل[17]. فقد خشي فيدرب تحالف هذه القوى الثلاث، خاصة وأن كلا منها قد أعلنت الجهاد ضد الفرنسيين، فرأى فيدرب ضرورة القضاء على كل قوة على حدة، قبل أن تتاح لهم فرصة التحالف ضد الفرنسيين، فبدأ بإرسال حملاته العسكرية ضد القبائل الموريتانية لتأمين حدود مستعمرته الشمالية[18]، فركز جهوده ضد قبائل الترارزة والبراكنة المجاورتين، فقام بإرسال العديد من الحملات العسكرية من أجل إخضاع هذه القبائل كما قام بتحصين كل من بُودُورْ وبكَّلْ ودگانه، فظن الترارزة أن كل ما قام به فيدرب موجه ضدهم[19]

ونتيجة للضغط العسكري الفرنسي المتزايد، وتدهور الأوضاع الاقتصادية لإمارة الترارزة، بالإضافة إلى التفكك الذى أصيبت به الجبهة الداخلية للإمارة، اضطر الأمير محمد الحبيب إلى أن يعلن رغبته فى العيش بسلام مع الفرنسيين؛ فأرسل شروط تلك الرغبة إلى فيدرب، والتى لخصها فى النقاط التالية:

أ– زيادة الضرائب السنوية التى تدفعها فرنسا للقبائل الموريتانية.

ب– هدم الحصون الفرنسية التى أقيمت على نهر السنغال.

ج– تعهد الفرنسيين بعدم إنشاء أية منشآت جديدة، وتعهدهم بدفع ضرائب جديدة فى منطقة جت اندر Get N'Der المواجهة لسان لوي، كذلك فى منطقة بوب نكيور Bop Nkior مقابل تزويد الفرنسيين بالماء والأخشاب[20]

لكن الوزير الفرنسي دكاس Ducas لم يكن يثق فى رغبة محمد الحبيب فى العيش بسلام، ولذلك كتب إلى فيدرب بضرورة السيطرة على القبائل الموريتانية، واحتكار تجارة الصمغ، كما حثه على إلغاء الهدايا التى كانت فرنسا تدفعها للقبائل الموريتانية، الشيء الذى يتطلب السيطرة على النهر وحماية سكان الضفة اليسرى من غارات القبائل الموريتانية المتكررة[21].

كما أن فيدرب من جهته لم يوافق على مطالب الأمير محمد الحبيب؛ فلم يكن أمام فيدرب تنفيذا للأوامر سوى شن الغارات على تلك القبائل فى عقر دارها، كما اتخذ بعض الإجراءات

التى كان يعتقد أنها تساعده على تحقيق أهدافه، وبالتالى تنفيذ الخطة التى رسمت له وأوكل إليه تحقيقها؛ فاعتبر الترارزة أن هذه الإجراءات إهانة لهم وموجهة ضدهم دون غيرهم؛ فعمل الأمير محمد الحبيب على منع السفن الفرنسية من الإبحار فى النهر، كما أرسل يهدد بتدمير الحصون الفرنسية فى كل من بُودُورْ وبكّلْ[22].

قد يكون هذا التغيير المفاجئ فى موقف الأمير محمد الحبيب من السلم إلى الحرب بعد أن أكد للفرنسيين حسن نواياه يرجع إلى تأكده من أن دعوته إلى السلم مع فرنسا لم تؤد إلى نتائج ملموسة، وأن رفض فرنسا لهذه الدعوة فى وقت هي تدعو فيه إلى السلم والسلام لا يعنى سوى إعلان الحرب ضد الترارزة خاصة والقبائل الموريتانية عامة. وقد يكون الأمير محمد الحبيب صادقا فى تصوراته، إذ نلاحظ أنه فى الوقت الذى رفضت فيه فرنسا مشروعه السلمي، قام فيدرب- وتحت ضغط الوزير الفرنسي الذى يلح بوضع حد لغارات القبائل الموريتانية- بإرسال قوة بقيادة كنار **Ganard** تمكنت بعد مناوشات عسكرية من إبعاد الترارزة عن النهر[23]. غير أن الأمير محمد الحبيب استمر فى المقاومة حتى كاد يقتل فى أحد الاشتباكات، لكن انهزام أعلي بن محمد الحبيب أمام القوات الفرنسية بقيادة فالت **Vallette**، جعل الكثير من القبائل تضطر إلى الجنوح للسلم لتبدأ مفاوضات سلام جديدة بين الأمير محمد الحبيب وفيدرب انتهت بالتوقيع على اتفاقية **20** مايو **1858**م[24]، ولعل هذا هو هدف الفرنسيين، أي أنهم يحصلون على السلام مع ضعيف مهزوم لا مع قوى يرغب فى السلام.

لقد كانت هذه الاتفاقية نصرا كبيرا لمخططات فيدرب، فقد كان من أهم بنودها- بالنسبة لفرنسا- اعتراف الأمير محمد الحبيب بالسيادة الفرنسية على منطقة والو، وأن يسري ذلك الاعتراف على ورثته من بعده، كما نصت على إلغاء الامتيازات الثابتة التى كان يحصل عليها الأمير من قبل السلطات والتجار الفرنسيين مقابل تأمين التجارة، واستبدالها بنسبة مئوية قدرها ثلاثة فى المائة (3%) من جملة ما يباع من الصمغ، تتكلف السلطات الفرنسية بتحصيلها، كما نصت الاتفاقية على إلغاء المحطات التجارية الثابتة باستثناء دگانه، مع منع الترارزة من عبور النهر مسلحين[25].

وعلى الرغم من أن الحرب قد انتهت بعقد اتفاقية لصالح فرنسا ممثلة فى شخص فيدرب، فإننا نراه فى **10** يونيو **1858**م يرسل كتابا إلى الترارزة يؤكد عليهم ضرورة احترام نص وروح الاتفاقية السابقة، وأن نقض عهود السلام الواردة فى تلك الاتفاقية يعيد الأوضاع إلى ما كانت

عليه، فى الوقت الذى يهددهم إن لم يكفوا أيديهم عن السودان الذين حسب قول فيدرب قد أجارهم فرنسا، وفى الحالة المعاكسة فإن البيضان لن يستفيدوا من المراعى الموجودة فى أراضى السودان، والتى كان البيضان ينتجعونها فى فصل الصيف، كما يلمح لهم بقتال الجزائريين بصفتهم عربا ومسلمين إلى جانب الفرنسيين، ولعله يرمى من وراء ذلك إلى تبرير طلبه الترارزة السلام والخضوع، كما طلب من الترارزة الانشغال فى إصلاح ما أفسدته الحرب، وأن الفرنسيين مستعدون لمساعدتهم وإجارتهم، والغريب فى هذا الكتاب أن فيدرب بدا فيه واعظا داعية للخير، حيث يقول: "...لكن الأمة المفسدة التى تظلم جيرانها يعاقبها الله بأن يسلط عليها الفتن والقتال فيما بينها، والمخالفة والتنازع فى البطن الواحد...."[26].

وبما أن محمد الحبيب هو الأمير الذى عرفت الإمارة فى عهده شبه استقرار سياسي داخلي، وبما أنه العدو اللدود لفرنسا، فإن فيدرب لم ينس أن يشير فى كتابه إلى أن ذنب البعض يجرم به الكل، ولا يقبل من الكل العذر فى حالة ارتكاب البعض الجرم، ولعله يقصد بهذا الأمير محمد الحبيب، إذ يقول: "...وذلك، لأنكم صرتم أمة واحدة، وبايعتم إماما واحدا وهو محمد الحبيب؛ فلذلك جعلناكم أمة واحدة متضامنة"[27].

ولعل هدف هذا الكتاب، خاصة وأن الحرب قد انتهت وبانهزام الأمير القوي، هو الْفَتُّ من عضد الترارزة وحملهم على قبول السلام، خاصة وأن فرنسا قد توصلت وفى هذا التاريخ بالذات إلى عقد اتفاقية مماثلة مع البراكنة، وقد يكون ذلك هو الذى جعل فيدرب يطلب فى كتابه من الترارزة العيش فى سلام، مثل إخوانهم ساكنى التل، يقصد بذلك البراكنة، ففى تلك الآونة كانت الظروف الداخلية فى البراكنة غير مستقرة ومضطربة، وربما كانت التدخلات الخارجية السبب الرئيسي فى ذلك، خاصة وأن الترارزة الإمارة القوية صاحبة النفوذ قد وقعت اتفاقية فرضت عليها الرضوخ للأمر الواقع، وربما كان أيضا للترارزة "المهزومة" ضلع فى الصراعات الداخلية التى تعيشها إمارة البراكنة آنذاك. غير أننا نرى أن فرنسا قد ساهمت فى تلك الصراعات بنصيب أكبر سعيا منها إلى إنهاك الإمارة وإظهار الأمير محمد سيدى عاجزا عن وجود حل لتلك الصراعات، مما قد يدفعه إلى الاستنجاد بفرنسا، ولعل ذلك وقع، حيث نرى الأمير يطلب السلام[28]، وقد يكون هذا هو الهدف الرئيسي للفرنسيين الذين بادروا فور إعلان الأمير رغبته فى السلام إلى عقد اتفاقية معه تم التوقيع عليها فى 10 يونيو 1858م.

وإذا كانت اتفاقية السلام لسنة 1858م بين الترارزة وفرنسا مجحفة بالأولى؛ فإن اتفاقية السلام لنفس السنة مع البراكنة لا تقل عنها مقاما، ذلك أن الأمير البركني قد اعترف فى هذه الاتفاقية بالحماية الفرنسية لبعض الأقاليم السنغالية، والتى لا يجوز لأتباع الأمير ارتيادها، وفيما يتعلق بتجارة الصمغ؛ فقد اتفق الطرفان على أن تكون كل من محطتي يُودُورْ وسلدية محطات التبادل طيلة السنة، على أن تكون مواد التجارة الأخرى حرة التبادل، وبالمقابل فقد استبدلت الهدايا بنسبة مئوية قدرها ثلاثة فى المائة (3%)، كما نصت الاتفاقية على بند جديد وهو أن يكون لفرنسا حق قطع الأشجار الكائنة فى المجال الترابي البركني للحصول على الأخشاب[29].

وهكذا نرى أن اتفاقيتي 1858م كانتا ذات شروط مجحفة، خاصة الجانب الاقتصادي منهما والذى حدد دخل كل إمارة بنسبة ثابتة بدلا من هدايا كانت تتناسب مع قيمة كمية الصمغ المباعة وحجمها، وقد تلعب المغامرات التجارية دوراً كبيراً فى زيادة هذه الهدايا وزيادة دخل الإمارة.

ولعل تحديد نسبة دخل الإمارة وإلغاء الهدايا هما السبب الذى جعل القبائل الموريتانية تتكتل فى جماعات متحزبة وتلتف حول رؤساء يعادى كل منهم الآخر، مما قد يهيئ فائدة مؤقتة سرعان ما تصبح هدفاً يتطلع إليه من لم تتح لهم الفرصة من ذى قبل.

ونتيجة لهذه الانتصارات والإنجازات حاول فيدرب أن ينتهز كذلك الحروب الداخلية فى الإمارات الموريتانية، والاغتيالات المستمرة، وعدم الاستقرار السياسى لكي يتوغل نحو أعالي نهر السنغال، خاصة وأنه كان يطمح إلى ربط نهرى السنغال والنيجر، فى وقت كان يؤرقه الخطر الذى يمثله الحاج عمر الفوتي زعيم التكرور وزعيم الطريقة التيجانية فى غرب السودان وأتباعه المتحمسون لمقاومة فرنسا[30]، وذلك بعد أن قويت شوكة الحاج عمر فى الوقت الذى كان فيه فيدرب مشغولا بتأمين حدود مستعمرته الشمالية، علما بأن فرنسا بالإضافة إلى معاهدات السلام التى أبرمتها مع القبائل الموريتانية، قد عقدت معاهدات سلام أخرى مع كل من زعيم ديمر Dimar سنة 1857م، لتصبح سارية المفعول فى إبريل 1859م، وأخرى مع زعيم تورو Toro سنة 1860م[31]، ولم يبق لها سوى محاربة الحاج عمر، ليتم لها السلام فى المنطقة ثم السيطرة عليها، وإن كان هذا لا يعنى عدم وجود مقاومة عنيفة ظلت مستمرة، حتى تم الاحتلال التام لكل منطقة.

وقد يكون من العوامل التي ساعدت فيدرب على تحقيق شبه سلام- إن صحّ مثل هذا التعبير- واحتكاره تجارة الصمغ لصالح فرنسا دون غيرها من الدول الأوروبية، توقيعه معاهدة 1857م مع إنجلترا تنازلت بموجبها عن حقوقها في ميناء پورتنديك، ذلك الحق الذي خولته لها معاهدة باريس لسنة 1814م، والذي ظلت تحتفظ به حتى توقيع المعاهدة المذكورة، خاصة إذا أخذنا في الاعتبار أن معظم المعاهدات أو الاتفاقيات التي وقعها فيدرب سواء مع القبائل الموريتانية أو غيرها كانت بين سنتي 1857- 1858م.

وعلى الرغم من أن إمارة الترارزة قد تفاقمت فيها الصراعات الداخلية على إثر مقتل الأمير محمد الحبيب سنة 1860م، فإن علاقاتها مع فرنسا قد عرفت تحسناً في عهد ابنه سيدى بن محمد الحبيب الذي تولى الإمارة خلفاً لأبيه، وإن كان هذا لا يعني أن الأمير سيدى لم يتصد للاستعمار في أي من تصرفاته وأيا كانت تلك التصرفات.

لقد حاول الأمير سيدى خلال فترة حكمه 1860-1871م أن يؤكد سيادته على المجال الترابي التروزي مهما كلفه ذلك حتى ولو دخل في حرب مع أي طرف، وقد تأكد ذلك في عدة مناسبات، غير أنه تأكد أكثر في الاتفاقية التي عقدت بينه وبين الأمير البركني سيد أعلي بن أحمد، والتي تمت تحت إشراف فيدرب، لتسوية الخلافات بينهما، وقد جاء في هذه الاتفاقية: "...يتعهد أمير الترارزة من جانبه، بالسماح للقوافل بالتوجه بكلَ حرية إما إلى پُودُورْ أو إلى دگانه وبضمان سلامة الطرق من رأس لكْرَاعْ حتى حدود أرضه غربًا، كما يتحمل ضمن هذه الحدود- أي حتى پُودُورْ- للحكومة الفرنسية مسؤولية أي نهب يقام به على الضفة اليسرى للنهر..."[32].

كما نلاحظ أن الأمير سيدى بن محمد الحبيب، وفي إطار دفاعه عن سيادته داخليا وخارجيا، وهيبته السياسية يرسل إحتجاجا إلى الوالي فيدرب، يحتج فيه على الدور التخريبي الذي يمارسه داخل السلطة الأميرية، سواء تمثل ذلك في مراسلات أو اتصالات سرية، حيث يقول: "...الجهد غاية الجهد في النكث والنقض ككتابك للعلي المبعوث إليك مع وزيري أحمد لعبيد... وخدمتك في عيالي ليلاً ونهارًا سرًا حتى صارت جهارًا..."[33].

وبما أن الاتفاقيات بين البراكنة وفرنسا بدأت تأخذ خط سير واحد، فإن الاتفاقيات بين الترارزة وفرنسا سلكت نفس الطريق، وإن كان من المفروض ألا يكون ذلك، نتيجة للثقل السياسي والاقتصادي لكل إمارة، ولعل ذلك انعكس أساسًا في الخلافات والحروب التي دارت

بين الترارزة وفرنسا، وتركت الاتفاقيات تسير فى اتجاه واحد وموحد، لئلا تأخذ بخاطر ذلك الأمير أو ذاك، وتفتح على نفسها جبهتين، جبهة الترارزة الإمارة القوية، وجبهة البراكنة الإمارة المطموع فيها من الطرفين.

ويبدو أن العلاقات الفرنسية الموريتانية خلال النصف الثانى من القرن 19م قد اتسمت بسمة الاستمرارية فى إطار التغيير، فمن حيث الاستمرارية، فهى محاولة من فرنسا لمواصلة سياستها القديمة إزاء سكان ضفتي النهر، وذلك بتشجيعها تجارة الصمغ وطرق حمايتها، مع الحفاظ على هدفها الرئيسي من ذلك الإجراء، وهو الحصول على أكبر قدر ممكن من مادة الصمغ، أما من حيث التغيير، فيكمن فى إلغاء كل الاتفاقيات التجارية والسياسية التى سبق وأن وقعتها فرنسا مع الأقاليم المجاورة، بإعتبار أن هذه الاتفاقيات كانت على حساب الفرنسيين، أو أن المستفيد منها لم يحترم نصوصها[34].

لقد كانت الاتفاقيات المبرمة بين فرنسا والقبائل الموريتانية- تهدف من بين ما تهدف- إلى تحديد المراكز التجارية التي يتم فيها التبادل التجاري بين الطرفين، كما أن القبائل الموريتانية كانت تهدف من ورائها إلى عدم إتاحة الفرصة أمام فرنسا للتوغل داخل البلاد، غير أن التجارة واتفاقياتها لم تكن كافية لإشباع نهم الفرنسيين في التعرف على البلاد، فما كان أمام فرنسا سوى إرسال مستكشفين يجوبون البلاد طولا وعرضا ويلاحظون عن كثب عادات وتقاليد المجتمع الموريتاني، والثغرات التي يمكن من خلالها التوغل داخل البلاد تمهيدا لاحتلالها، وتجدر الإشارة إلى أن هؤلاء المستكشفين تقمصوا في معظمهم شخصية التاجر مدعين أنهم مكلفون بمهمة دراسة إمكانية التعاون التجاري مع المنطقة، كما أن غالبية هؤلاء المستكشفين كانوا يحتمون بمظلة الإسلام، إما بانتحاله وممارسة شعائره أو بحماية إحدى الشخصيات الدينية إذا تمكنوا من إقناعها أنهم لا يريدون شرا للبلاد.[35]

1- سياسة الرحلات الكشفية: إن تنفيذ فرنسا لمشروعها الرامي إلى ربط مستعمراتها في الشمال الأفريقي بتلك التي في غربها، كان يتطلب من فرنسا- وفي إطار سعيها إلى تغيير تعاملها مع المنطقة- الإسراع إلى جمع المعلومات عن البلاد الموريتانية، في إطار هذا السعي عرف النصف الثاني من القرن 19م قفزة كبيرة في كمّ وكيف الرحلات الكشفية الفرنسية التي كادت أن تغطي مختلف أنحاء البلاد، ولتكون أيضا هدفا لكل مغامر فرنسي يرى في نفسه الجرأة ليبحر بسفينته في بحر متلاطم الأمواج، مقدما حمولتها قربانا لمعبوده (الوطن).

وفي إطار تنفيذ السياسة الاستعمارية الجديدة، وفي الجزء الثاني منها، نلاحظ أن الرحلات الكشفية الفرنسية، كثرت وأكتظت بها الموانئ عندما تولى فيدرب زمام الأمور في السنغال حيث سعى جاهدا إلى إزالة العقبات التي كانت تقف حجر عثرة أمام تلك السفن، وذلك بعد أن توصل إلي عقد معاهدات سلام مع قبائل موريتانية لتحمي بها هذه الأخيرة الرحالة الفرنسيين الذين غالبا ما كانوا يتقمصون شخصية التاجر وليكونوا- بعد هذه المعاهدات- في مأمن من كل ما قد يتعرضون له من قبل تلك القبائل، ولهذا السبب تكون الحملات الاستكشافية في النصف الثاني من القرن 19م لا تقارن بتلك التي كانت في نصفه الأول، وإن كانت هذه الأخيرة قد وصلت- ولأول مرة- بعد البرتغاليين إلى منطقة آدرار[36]. بيد أن تلك الحملات قد تكون عديمة القيمة إذا ما قورنت بقيمة الحملات الاستكشافية التي بدأت منذ عهد فيدرب.

يبدو أنه لما بدأ الوضع في الأقطار المجاورة للسنغال مستقر نسبيا، بدأ التحضير لاستكشاف المناطق المجهولة من السودان الغربي، وبصورة خاصة موريتانيا، فكان ذلك بمثابة الضوء الأخضر لانطلاق حملات استكشافية أجتاحت موريتانيا، جاعلة من السنغال نقطة انطلاقها لتصل في النهاية إلى المغرب مرورا بمنطقة آدرار الموريتانية[37].

ففي سنة 1859م كلفت فرنسا الضابط ماج Mage بالقيام برحلة في منطقة تجانت، فكانت نقطة انطلاقه بُكَل قاصدا تگانت، وقبل أن يبدأ ماج رحلته تمكن من رسم خريطة المناطق التي يود زيارتها أو المرور بها محددا على تلك الخريطة الوضع الجغرافي لهذه المناطق، إلى جانب تحديد نقاط المياه والقمم المهمة[38].

وقد تعرف ماج خلال هذه الرحلة على بعض القبائل الموريتانية، كما ألتقى ببكَار ولد أسويد أحمد أمير تگانت الذي كان يحسب ماج موفدا من فرنسا من أجل تنظيم العلاقات بين الطرفين، حيث طلب منه إعادة جباية الضرائب القديمة، غير أن ماج عبر للأمير بكَار عن عدم إيكاله أمورا كهذه، في حين أنه على استعداد لأن يشعر حكومته بذلك، كما ألتقى ماج بالشيخ سيد أحمد البكَاي[39].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن فيدرب كان مشغولا باكتشاف الشواطئ الموريتانية، حيث كان يحلم بتجديد الدور القديم لجزيرة آرجين، لهذا السبب نراه يكلف سنة 1859م كلا من فيلكرند Fulcrand وأوب Aube، بدراسة الجزيرة وكذلك خليج اليفربيه[40]، كما نلاحظ في سنة 1860م أن الحكومة الفرنسية في السنغال قد كلفت الفرنسي فينسان Vincent برحلة استكشافية إلى منطقة آدرار، وبعد الموافقة النهائية على الرحلة خرج فينسان بصحبة أبو المقداد Bou el Mogdad في 5 مارس 1860م، عابرا نهر السنغال حتى وصل دگانة حيث اتصل بأمير الترارزة محمد الحبيب الذي أكرم ضيافته[41]. وقد يستنكر ذلك على الأمير محمد الحبيب لأنه خرج على مألوف بسطاء قبائل

موريتانيا أو بالأحرى الأمراء، فدأب الموريتانيين كان التنكيل بكل من يختلف عنهم في الدين زائرا، ولا سيما إذا كان يحاول التعرف على عادات وتقاليد تلك القبائل خدمة للأهداف الاستعمارية. ويجب علينا أن نشير إلى أن الأمير محمد الحبيب سبق له وأن أخذ عهدا على نفسه- من خلال معاهدات السلام المبرمة بينه وبين فرنسا- بأن يحمي كل فرنسي يدخل مجاله الترابي بغض النظر عن نوع مهمته. ولعل اتخاذه أدلاء لفينسان ليوصلوه إلى قبيلة العلب التي قدمت له بدورها مرشدين من أجل مساعدته على إكمال رحلته، هو أكبر دليل على رغبته في احترام تلك المعاهدات.

وقد كان لهؤلاء الأدلاء الفضل في أن يتمكن فينسان- في رحلته هذه- من زيارة أطلال آرگين وبورتنديك **Portendik**[42] ورأس تميريس واختراق تيرس، متجها صوب سبخة الجل. كما زار فينسان كلا من ودان وشنقيط، إلا أنه لم يتمكن من دخول أطار عاصمة الإمارة[43]. ويرجع ذلك إلى كون الأمير ولد عيده قد احتجزه لمدة 27 يوما بتهمة التجسس، وربما كان ذلك سببا في عرقلة مشروع زيارته لمدينة تيشيت، الشيء الذي اضطره إلى الرجوع إلى سان- لويس، عن طريق تگانت وبكَل وبُودُور[44].

ويبدو من خلال هذه الحادثة أن معاهدات الحماية- إن صحت تسميتها بهذا الاسم- لم تؤت أكلها، فبالإضافة إلى الحادثة المذكورة، نلاحظ من ناحية أخرى أن فقهاء آدرار طلبوا من الأمير ولد عيده قتل فينسان وأفراد بعثته كما حاولوا تسميمه عندما رفض الأمير تلبية مطلبهم، ونتيجة للأوضاع السابقة اضطر فينسان- في 30 يونيو 1860م للعودة إلى سان-لويس. بيد أن رحلته- رغم ذلك كله- مهدت الطريق أمام فرنسا لمعرفة آدرار.

وعلى الرغم من ذلك- أيضا- فإن فينسان تمكن من جمع معلومات وفيرة عن آدرار، لم يسبق لأوروبي أن جمعها وقد يكون لذلك دليله، حيث كانت التقارير التي جمعها عن رحلته ذات قيمة كبيرة حتى أن غورو **Gouraud**- بعد خمسين عاما- استفاد من مذكرات فينسان واسترشد بها خلال حملته على آدرار سنة 1909م[45].

كما عرفت سنة 1860م- بالإضافة إلى الرحلات سالفة الذكر- رحلات استكشافية أخرى لا تقل أهمية عن سابقاتها، وإن كانت هذه وتلك ترمي إلى اكتشاف المناطق المجهولة من موريتانيا في حين تتحدد أهمية هذه أو تلك بقدر الاستفادة من المعلومات التي توصلت إليها كل منهما، ومن هنا تتساوى النتيجة، فرواد كل الرحلات التي اخترقت الأراضي الموريتانية، قدموا معلومات أفادت من جاء من بعدهم.

وفي سنة 1860م أيضا، قام بورل **Bourrel** بمرافقة عاليون صال **Alioun Sall** برحلة إلى البراكنة التي كانت قد درست من خلال الرحلة التي قام بها رنيه كايه **René Caillié**. بيد أن

المعلومات التي قدمها هذا الأخير كانت ناقصة، فالأوضاع الجغرافية التي قدمها لم تكن دقيقة، وبخاصة فيما يتعلق ببحيرة ألاك التي ظلت المعلومات حولها مبهمة[46].

ولهذا السبب، كلف بورل برحلة إلى منطقة البراكنة ليقدم عنها- وخاصة بحيرة آلاك- معلومات أكثر دقة، كما أن هذه الرحلة كانت تهدف في أحد جوانبها إلى ربط كل من رحلة فينسان التي قام بها إلى منطقة الترارزة بتلك التي قام بها ماج إلى منطقة تگانت[47].

وعلى الرغم من الصعوبات التي اعترضت بورل- سواء من طرف الأمير البركني أو غيرها-، فإنه تمكن من انجاز مهمته، حيث نراه يكشف ذلك الغموض الذي كان يحيط بالموقع الجغرافي لبحيرة آلاك، إذ استطاع تقديم وصف أكثر دقة من الذي قدمه رنيه كاييه[48].

وفي إطار تلك الرحلات أيضا نلاحظ أن عاليون صال مرافق بورل في رحلته، قد حصل على موافقة الحاكم الفرنسي في السنغال للقيام برحلة بمفرده.

ويبدو أن هذه الرحلة كان هدفها تكملة رحلة بورل، كما أنها أيضا تدخل في إطار الرحلات الاستكشافية الفرنسية الرامية إلى الحصول على المزيد من المعلومات عن عادات وتقاليد المجتمع الموريتاني وظروف البلاد اقتصاديا وجغرافيا، وقد بلغ عاليون صال في رحلته هذه منطقة توات Touat قادما من تمبكتو مرورا بالجزائر[49].

وخلال الشهور التي قضاها عاليون صال في البراكنة ألتقى بعض القبائل واحتك بها، ومن ثم اتجه صوب تگانت حيث إمارة إدوعيش، لكنه واجه الكثير من الصعوبات، منها أنه لم يكن لينجو من بأس الأمير بكّار، مع أن عاليون صال أكد للأمير أنه غادر الخدمة مع الفرنسيين وأنه في طريقه من مكة حيث كان يؤدي فريضة الحج. بيد أن ذلك لم يشفع له، حيث اتخذه بكّار رهينة لديه، ولم يستطع مغادرة تگانت إلا بعد أن سافر بكّار إلى آدرار لمساندة ترشيح الابن الأكبر لولد عيده بعد وفاة والده، ونتيجة لذلك استطاع عاليون صال مغادرة تگانت حيث التقى في طريقه بإحدى القبائل الصحراوية التي طافت به على منطقة الرقيبة R'gueïba، وقد شملت هذه الرحلة مناطق عديدة لم تكن فرنسا تعرف عنها إلا الترر اليسير[50].

الخاتمـــة: نلاحظ من خلال هذه السطور أن السياسة التي اتبعتها فرنسا من أجل إخضاع المنطقة كانت لها نتائج إيجابية سواء تعلق الأمر بسياسة الاتفاقيات التي كانت في معظمها مجحفة بالموريتانيين، ولا غرو إذا علمنا أن فرنسا كان شغلها الأول هو إخضاع القبائل الموريتانية، باعتبار ذلك الإخضاع تأمينا للمستعمرة الأم(السنغال)، في وقت كانت فيه هذه القبائل الشغل الشاغل لجميع الحكام الفرنسيين في السنغال. كما أن هذا الإخضاع المؤمن بالاتفاقيات المبرمة بين الفرنسيين والأمراء

الموريتانيين، هو الذي فتح المجال أمام فيدرب لكشف المنطقة. ليبدأ بإرسال المكلفون باكتشاف وتحصيل المعلومات عن موريتانيا.

لقد مكنت المعلومات المحصّلة من الرحلات الاستكشافية، فرنسا من أن تدون سجلا بالفوائد التي يمكن أن تعود عليها من موريتانيا[51]، غير أن هذه الرحلات كشفت من ناحية أخرى النقاب عن بلد غريب من الناحية الطبيعية أكثر منه من الناحية البشرية في حين أن هذه الرحلات لم تدع الشك يراود فرنسا من جديد، حيث كان يخيل إليها أن موريتانيا مساحات قاحلة جرداء، ذلك التصور الذي كان من الممكن أن يستمر في خيال الفرنسيين لفترة زمنية طويلة.

على الرغم من سيطرة فيدرب على النهر، فإنه قد بدا واضحا له على إثر هذه الرحلات الاستطلاعية التي جابت بلاد موريتانيا طولا وعرضا أن السيطرة على الجزء الشمالي من هذه البلاد يتطلب منه احتلال المناطق الجبلية في كل من تگانت وآدرار، وهو ما سيضعه كوبولاني **Coppolani** نصب عينيه سنة **1905**م، بعد احتلال كل من الترارزة والبراكنة.

الهوامش:

1- هو أحد الحكام الفرنسيين الذين قادوا الحملة الاستعمارية الفرنسية في أفريقيا، وقد حكم علي فترتين الأولى من **1854** حتى **1861**م، والثانية من **1863** إلى **1865**م.--- 2- دي- جي- فاج، تاريخ غرب إفريقيا، ترجمة وتقديم وتعليق السيد يوسف نصر، مراجعة الترجمة إلى العربية بهجت رياض صليب، دار المعارف، ط1، القاهرة، **1982**م، ص312.

3- الحاكم الفرنسي في السنغال إذ ذاك هو بروتيه **Protet** الذي في عهده **1850-1854**م، بدأ عهد استعماري جديد.

4- سعد خليل، تكوين موريتانيا الحديث، رسالة ماجستير، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة **1977**م، ص **205**.

5- إلهام محمد علي ذهنى، جهاد الممالك الإسلامية فى غرب إفريقيا ضد الاستعمار الفرنسي(**1890- 1915**)، دار المريخ، الرياض **1988**م، ص

6- Ernest Milcent, *Le Sénégal au carrefour des options africaines*, Paris, 1965, p. 32. ---.83

7- Beslier (G), *Le Sénégal*, Paris, 1925, p. 135.

8- سعد خليل، مرجع سبق ذكره، ص **205**.

9-Deschamps (H), Histoire générale de l'Afrique noire, Tome II, Paris, 1971, p. 63.

10- دي - جي - فاج، مرجع سبق ذكره، ص **312**.

11- حكم فيدرب فترتين فى السنغال، بدأت فترة حكمه الأولى من **1854** حتى **1861**م والثانية من **1863** إلى **1865**م وقد عمل من قبل فى الجزائر، وقبل أن يكون حاكما فى السنغال اشترك مع الحاكم بودان سنة **1853**م فى إنشاء حصن پُودُورْ، وقد استفاد فيدرب خلال هذه الفترة من تعلم اللغة العربية وكذلك لغة الولوف مما ساعده على تفهم المواطنين، راجع حول ذلك إلهام محمد علي ذهنى، مرجع سبق ذكره، ص **83**، وكذلك

---Deschamps (H), *op. cit*, p. 63 12- سعد خليل، مرجع سبق ذكره، ص **206**.

13-Delafosse Maurice, *Histoire des colonies Françaises*, Tome IV, Paris, Plon, 1931, p. 127, et Gillier (C), *La pénétration en Mauritanie*, Paris, 1926, pp. 55-56, et Francis Dechassey, *la Mauritanie de 1900 à 1975*, l'Harmattan, Paris 1984, p. 39.

14- سعد خليل، مرجع سبق ذكره، ص **207**.

15- مثل اتفاقية **1821**م بين فرنسا والأمير أعمر بن المختار أمير الترارزة، وقد يبقي ذلك الحق ساري المفعول ما لم يأت ما ينقضه.

16- مابًا زعيم حركة إصلاح دينية قامت بمنطقة أفار الجنوب، وقد أعلن الجهاد ضد الوثنيين، تأسيا بحركة الجهاد التى أعلنها الحاج عمر، وقد ساعد من علوّ شأن مابًا، أن الحاج عمر قد أعلن فى سنة **1850**م بأن مابًا هو نائبه فى منطقة سنغمبيا، راجع حول ذلك

Joseph Ki Zerbo, *Histoire de l'Afrique noire, D'hier à Demain*, Hatier, Paris, 1978, p. 417.

17- إلهام محمد علي ذهنى، مرجع سبق ذكره، ص **85**.---

18-Deschamps (H), *op. cit*, p. 60.

19- إلهام محمد علي ذهني، مرجع سبق ذكره، ص 85.

20-Faidherbe (L), *Le Sénégal, la France dans l'Afrique Occidentale*, Paris, Hachette, 1889, p. 136.

21-Beslier (G), *op. cit*, p. 138.

22- إلهام محمد علي ذهني، مرجع سبق ذكره، ص 86.

23-Beslier (G), op. cit, p. 139.---- 24-A.N.S, 9G6, Traite avec les Trarza, du 20 Mai 1858, Pièce N°12.
25-Ibidem.---- 26-A.N.S, 9G2, Lettre de Faidherbe au Trarza, en date du 10 juin 1858.
27-Ibidem.---- 28-Paul Marty, Etude sur l'Islam et les Tribus maures, Les Brakna, Paris, 1921, p. 70.
29-Ibid, p. 71.

30- سعد خليل، مرجع سبق ذكره، ص 209.---- 31- إلهام محمد علي ذهني، مرجع سبق ذكره، ص 90.

32- محمد المختار ولد السعد، الإمارات والمجال الأميري البيضاني خلال القرن 18م- 19م، إمارة الترارزة نموذجا، حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة انواكشوط، العدد (2) 1990م، ص47.

33-A.N.S, 9G2, Lettre de Sidi à Faidherbe, 1865, Chemise N°1.
34-Gnokane Adama, *La politique française sur la rive droite du Sénégal, le pays maure en présence 1817-1903*, Université de Paris1, Panthéon, Sorbonne, 1986-1987, p 107.

35- الخليل النحوي، بلاد شنقيط المنارة والرباط، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1987، ص 325

36- مثل رحلة ليوبولد بانيه Leopold Panet سنة 1850م التي وصل فيها على مدينة شنقيط.

37-Gillier,op. cit, p. 75.---- 38-Ibid, p. 86.---- 39-Ibid, p. 87.---- 40-Ibid, p. 92.---- 41-Ibid, p. 76.

42- پورتنديك هكذا عرف فى الكتابات الأوروبية تحريفا للتسمية الهولندية Porto d'Edi نسبة إلى هدى بن أحمد بن دامان، وذلك بعد إنشائه فى القرن السابع عشر الميلادي من طرف الهولنديين فى أعقاب طردهم من أرگين.

43-Désiré (V), *la Mauritanie du 19ème siècle à l'indépendance, Introduction à la Mauritanie*, Edition C.N.R.S, Paris, 1979, p.72.

44- محمدو ولد محمذن، الرحالة الفرنسيون في القرن 19 ودورهم في تحريف التاريخ الموريتاني، حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة نواكشوط، العدد2، 1990، ص 32 وكذلك Gillier, *op. cit*, pp. 78-79

45-Désiré (V), *op.cit*, p.72.--- *46-Ibidem*.--- 47-Bourrel Dominique, « Voyage dans le pays des Maures Brakna, rive droite du Sénégal », Juin, Octobre 1860, in *Revue Maritime et Coloniale*, Tome Second, Septembre, 1861, p. 511.--- *48-Ibid*, p. 512.--- 49-Gillier, *op. cit*, p. 85.

50- الحوض Hodh وأفله و گورگول Gorgol--- 51- سعد خليل، مرجع سبق ذكره، ص 213.

Abstract: *Following his nomination at the head of the colony of Senegal in 1854, Faidherbe did not hesitate to silence the unruly robber Moors by the force of weapons and to carry the war into their own territories. When security was ensured after four years of almost continuous struggle (1854-1858) and warlike expeditions to which all the living forces of the colony had to be primarily devoted, pacific works of development were initiated. In 1859, considering that the political situation in the areas neighboring Senegal was relatively calm, Faidherbe decided to explore the imperfectly known regions of Western Sudan and particularly Mauritania. The goal was to complete the little extensive notions the French possessed about the geography, ethnography and commercial resources of those regions. It was the period of the great explorations which, departing from Senegal, reached Adrar and even Morocco. The go-ahead was thus given for the organization of exploration assignments. Their members had to roam all over the forests, the oases, the camps, and the deserts of the land of the Moors.*